

فلنحسم هذه المسألة

يلقي فندق الرشيد الرهبة في النفوس لضخامته، وقد تم بناؤه من قبل «مجموعة أوبيروي» الهندية، في ثمانينيات القرن المنصرم، قبل أن يبدد صدام ثروة البلاد على التسليح؛ بغية هزيمة إيران، ويتعرض العراق للنبد، على الصعيد الدولي، في أعقاب غزوه الكويت. أُنشئت غرف الفندق الأربع مئة والثمان والعشرون، حين تم افتتاحه، بما هو وثير من المقاعد والسجاد، وأحدث أجهزة التلفزة، والهواتف، ناهيك عن أرضية حماماتها الرخامية. قدمت حانة شهرزاد في الأسفل، علاوة على ذلك، ما هو فاخر من الكحول، ناهيك عن صالة ديسكو ألف ليلة وليلة، التي كانت تعج بالحسان، والمتاجر الحاوية أفخر أنواع العطور الفرنسية، والعيادة الطبية القائمة على رعاية النزلاء، بواسطة أطبائها الأوروبيين.

أرغمت مجموعة أوبيروي على مغادرة البلاد، بعد حرب الكويت، جراء عقوبات الأمم المتحدة. تسلمت حكومة صدام إدارة الرشيد -من ثم- ناهيك عن الفنادق الأجنبية الأخرى في البلاد كافة، بما يشمل شيراتون عشتار والميريديان، الذي سمي فندق فلسطين. أوقفت وزارة المالية المعدمة أعمال الصيانة في الرشيد، توفيراً لما تحتاجه من نفقات. لم يثر ذلك انتباه أحد، طيلة بضع سنوات، حتى أخذت المصاعد تتعطل، ناهيك عما أصاب الفرش من بلاء، والمراحيض من تصدع. وقضت على ما حُلَّ بالفندق من إهمال، حين نزلت فيه للمرة الأولى في العام 2002، وقد اضطرت إلى رشوة عامل التنظيفات؛ بغية الحصول على لفاقة من مناديل المرحاض الورقية. توقفت معظم الهواتف عن العمل، بينما عرضت أجهزة التلفزة ست محطات، لا أكثر، مما يخضع لرقابة الحكومة. لم يسمح نظام صدام بعرض محطاتي السي إن إن والبي بي سي في الفندق، وقد تملكني الشك، وصحبي من النزلاء، من وضع شرطته السرية أجهزة تنصت في أجهزة تلفرتنا.

طالب البنتاغون - قبل أسبوع من الحرب - محطات الأخبار الأمريكية بإخلاء فندق الرشيد، لوقوعه على لائحة الأهداف المحتملة، جراء وجود ملجأ كبير أسفله. لم يحظ الأمريكيون - بكل الأحوال، بالرغم مما أصاب المبنى من إهمال - بما هو أفضل من أماكن للإقامة.

انتقلت الدفعة الأولى من المدنيين الأمريكيين - جاي غارنر، وأعضاء مكتب إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية - إلى القصر الجمهوري، عوضاً عن فندق الرشيد، المؤلف من أربعة عشر طابقاً، بما يعلو المباني المجاورة، جراء تعرضه للهجمات، بحسب خبراء المكتب الأمنيين. تغيرت التقويمات الأمنية، بكل الأحوال، مع اكتظاظ القصر بساكنيه: بات الفندق آمناً بما يكفي، في نظر ضباط الأمن التابعين لسلطة الائتلاف المؤقتة، لإيواء المئات من الموظفين، الذين كانوا ينامون على الأسرة المتنقلة في القصر، بانتظار ما يفترض أن تحضره هالبرتون من مقطورات إلى بغداد.

أولت مهمة إدارة الرشيد إلى شركة هالبرتون، التي عمدت إلى إعادة استخدام العشرات من موظفيه السابقين، بما يشمل عدداً ممن اشتبهت بانتمائهم إلى الاستخبارات العراقية. لم تبذل الشركة كثيراً من الجهد لتأهيل الغرف، بالرغم من مسارعته إلى إعادة افتتاح صالة الديسكو، وإقامة حانة في ملجأ القبو، لتجعل من الفندق - من ثم - مقر الاحتفال الرئيس في مدينة الزمرد.

تشاءب العقيد إلياس نمر، قبل أن يتقلب في فراشه. استيقظ منذ عشر دقائق، عند السادسة صباحاً، بينما اخترق أول أشعة الشمس الأفق، محيلاً عتمة السماء إلى الزرقة. لم يكلف نفسه عناء إنزال الستائر قبل الخلود إلى النوم، وقد اعتاد الاستيقاظ مع بزوغ الشمس، طيلة ما يقارب ثلاثة عقود التي أمضاها في الخدمة العسكرية.

تمكن الرجل من مشاهدة الطريق السريعة المؤلفة من ثمانية مجازات، عبر نافذته المطلة غرباً، في الغرفة 916، علاوة على حديقة حيوانات المدينة، وأحد المنتزهات المجاورة، وامتدادات قاحلة، بما تحويه من أشجار زاوية، ومبانٍ متداعية. وُضِع، نحو الجهة اليسرى، أبرز ما شيده صدام من نصب تذكارية لتخليد ذكرى الحرب

مع إيران، وساحة للاستعراضات العسكرية، يتخللها قوسان عملاقان بمظهر يدين - على هيئة يدي صدام - تقبضان على سيفين متقاطعين.

فكر نمر قائلاً لنفسه: «يتعين علي النهوض». لم يكن ملزماً بالتوجه إلى القصر الجمهوري، في صبيحة ذلك اليوم، الأحد، قبل الحادية عشرة. ارتأى ممارسة المشي قبل البدء في عمله. كان المسؤول الأبرز عن الميزانية ضمن فريق سلطة الائتلاف المؤقتة، العامل مع وزارة الصحة العراقية. اتسمت وظيفة نمر - لبناني المولد، حامل الجنسية الأمريكية، الذي يتحدث العربية - بكثير من التعقيد، ليمتلك ما هو واسع من الخبرة. تولى الرجل، في السابق، المسؤولية عن ميزانية مركز والتر ريد العسكري الطبي في واشنطن، بعد إدارة ميزانية مركز البحث الطبي الأبرز في الجيش، فورت ديتريك، المقدرة بمليار دولار.

اتسم نمر بالبداة، ناهيك عن عرض فكيه، ومظهر أنفه المدبب، وسمرة بشرته، وما يفزو شعره من شيب. تتأب الرجل مجدداً، قبل التفكير في الخلود إلى النوم ثانية، ليحسم أمره بالنهوض، في نهاية المطاف، على وقع أحد الانفجارات الضخمة التي هزت الفندق.

فكر نمر، في تلك اللحظة، قائلاً لنفسه: «يا إلهي، قد فعلوها أخيراً».

استلقى الرجل على الأرض بدافع من غريزته، قبل أن يفكر قائلاً لنفسه: «لم يكتف أحد في السابق بإطلاق صاروخ واحد. سيطلقون المزيد بلا ريب». مثل الاستلقاء على الأرض أكثر الوضعيات أمناً، في حينه، مع الابتعاد قدر الإمكان عن النافذة. عجز نمر عن الحلول أسفل أي من سريري الغرفة، جراء ضخامة حجمه، ليعمد إلى التخندق في الحيز الفاصل بينهما، مستلقياً على بطنه.

وقعت الحادثة في السادس والعشرين من تشرين الأول / أكتوبر 2003، بعد ستة أشهر ونصف من دخول القوات الأمريكية بغداد. استهدف المتمردون الرشيد بصواريخهم، قبل شهر من الزمن، ليفتقر الهجوم إلى الفاعلية بكل الأحوال. تم إطلاق القذائف من منصة متحركة، في حي سكني، شمال المنطقة الخضراء.

أصابته إحداها الطابق العلوي، دون أن تسبب كثيراً من الأضرار، بينما سقطت أخرى في إحدى الحدائق، وضربت ثالثة منزلاً قرب موقع الإطلاق. لم تمثل واجهة الفندق الشمالية الضيقة، أو الجنوبية المحاذية للمنطقة الخضراء، مصدر قلق، على النقيض من الشرقية والغربية، الهشتين من الناحية الأمنية، جراء طولهما، وامتلائهما بالنوافذ.

استبعد خبراء السلطة الأمنيين وقوع هجمات جديّة على الرشيد، بالنظر إلى فرضيتهم المتمثلة في افتقار المتمردين إلى المهارات أو التجهيزات الكافية لإصابته بدقة عالية. فّت الحوادث، بكل الأحوال، في عضد نزلاء الفندق.

ازدادت وتيرة الهجمات بواسطة القناصة، والعبوات المزروعة على جوانب الطرق، بمرور الوقت، خارج المنطقة الخضراء. دمرت السيارات المفخخة السفارة الأردنية ومقر الأمم المتحدة، لتقتل رئيس بعثتها، الدبلوماسي البرازيلي سيرجيودي ميللو. تناهى إلى أسمع ضباط الاستخبارات معلومات عن مؤامرات لاخطاف أجنبي. افترض بمدينة الزمرد، بكل الأحوال، أن تكون آمنة، بالنظر إلى ارتفاع أسوارها البالغ سبعة عشر قدماً، وما تحويه من نقاط للتفتيش.

ضرب صاروخ ثانٍ حاجزاً إسمنتياً خارج نافذة نمر، بعد عشرين ثانية من الهجوم الأول، ليحطم زجاجها، ويملاً الغرفة بالركام.

أخذ نمر بالصلاة، في تلك اللحظة، قائلاً: «أرجوك ربي، إنه هذا الأمر».

اتخذ الصاروخ الثالث مسار سلفه، وإن شق عنان السماء بزواوية تعلوه قليلاً. كان الأخير، كما سابقه، من طراز كاتيوشا 85 ملم، روسي الصنع. لربما بيع إلى العراق، على الأرجح، في ثمانينيات القرن المنصرم؛ بغية استخدامه ضد إيران. تعرض الآلاف من تلك الصواريخ للنهب، من مستودعات الأسلحة، في أعقاب الحرب.

تبلغ سرعة صواريخ الكاتيوشا ثلاثة أضعاف سرعة الصوت. إن وقفت بجانب أحدها عند إطلاقه، فستجد أن صوتها يشبه صرخة مرتفعة في الصور، ولن تسمع شيئاً، حين تكون في موقع هبوطها، حتى تضرب أهدافها.

حلق الصاروخ الثالث عبر نافذة الغرفة 916 المحطمة، ليضرب الجدار الواقع إلى الجهة اليمنى من موقع نمر. رأى الرجل وميضاً قوياً ينبعث من رأس الصاروخ الحربي الفوسفوري، وكأن أحدهم قد أضاء آلة تصوير في وجهه. شعر نمر، فيما بعد، بهبة قوية من الهواء المضغوط الناتج عن الانفجار. اخترقت جسد الرجل، كما رصاصات «الخردق» الصغيرة، كسرات محترقة من الصواريخ، وقطع من الجدران، وشظايا من العوارض الحديدية وزجاج المصاييح. حطّ الركاب المنبعث من الانفجار على رأسه، وظهره، وساقيه، ناهيك عما سببه من حروق في جسده.

صرخ نمر، في حينه، وقد ظن أنه سيلقى حتفه.

حاول الرجل التكلم، بينما كان يلتقط أنفاسه. صرخ بصوت مبحوح قائلاً: «النجدة، أحتاج العون هنا».

أخذ الحطام المحترق «يطقطق» حوله، بينما أومضت الأسلاك الكهربائية. غصت الغرفة بالدخان، ورائحة مادة الكوردايت المتفجرة الحادة. تمكن نمر من سماع صوت صراخ بعيد.

اهتز الفندق على وقع انفجار صاروخ آخر، قبل أن يعم السكون.

تحدث الرجل، بلهجة أقرب إلى العويل، قائلاً: «هل يوجد أحد هنا؟، فليساعدني أحدكم رجاء».

لم يلب أحد نداءه.

فكر نمر، في تلك اللحظة، قائلاً لنفسه: «يفضل ألا أصرخ مجدداً. أحتاج إلى توفير طاقتي».

حاول الرجل الزحف، ليدفن نفسه في الركاب بصورة أكبر.

فكر مجدداً، فيما بعد، قائلاً لنفسه: «أعلم أنهم سيأتون لنجدتي. يتعين علي الحفاظ على قواي».

ضرب صاروخ آخر الفندق، ليعقبه آخر. تمكن نمر من احتساب سبعة صواريخ إضافية، أعقبت إصابة غرفته.

لم يدرِ الرجل، في حينه، أن الصاروخ الذي حلق عبر نافذته لم ينفجر في غرفته. لو حدث ذلك بالفعل، فلماً بقي على قيد الحياة ليصرخ. اخترق الصاروخ الجدار، قبل أن ينفجر في الحمام. تحرر قسط كبير من قوة الانفجار بعيداً عنه، ليهدم الخزانة، والباب الأمامي، والرواق.

شغل أحد زملاء نمر في فريق وزارة الصحة، المقدم تشارلز فيشر، الغرفة 915، الواقعة عبر الردهة. بلغت قوة الانفجار من الشدة ما ألقى به على الأرض. تمكن فيشر، في المدة الفاصلة بين الانفجارات، من سماع عويل نمر، الذي أخذ يخفت، طلباً للنجدة. فكر فيشر، في حينه، قائلاً لنفسه: «تياً، لقد أصيب بشدة».

صرخ الأخير قائلاً: «إلياس، سأتي لنجدةك».

لم يلقِ الرجل رداً.

التقط فيشر بندقيته، وحقبية ظهره، التي تحوي عدة طبية، قبل أن يبدأ في الحفر عبر الحطام الذي يحجب بابه. امتلك نمر كثيراً من الحظ. لم يكن فيشر طبيباً عادياً، بل المدير السابق للعناية الحرجة في عيادة كليفلاند، علاوة على انتمائه لنخبة القوات الخاصة في الجيش.

اصطدم فيشر، حين بلغ الرواق، بحائط من الركام يحجب باب نمر. عمل الرجل على أبعاد ما أمكنه منه جانباً، قبل أن يصادف -عند دخوله الغرفة 916- شريطاً كهربائياً متديلاً من السقف، يومض بشدة. زحف فيشر أسفل الشريط، ليبدأ الحفر باتجاه نمر.

ظن فيشر للوهلة الأولى أن نمرأ قد لقي حتفه. غطى الركام قسماً كبيراً من جسد الأخير. تخضب قميصه الأبيض بالدماء، ناهيك عن سقوط قطعة كبيرة من الخشب على رأسه.

أخذ نمر بالعويل مجدداً، بينما عمل فيشر على إزالة الركام.

همس نمر لفيشر قائلاً: «لا أستطيع الحراك. أشعر بالخدر من وسطي حتى أسفل جسدي».

صرخ اثنان من المتعهدين الأمنيين، المنتمين إلى جنوب إفريقية، في أثناء وجودهما في الرواق، قائلين: «هل يوجد أحد في الغرفة؟».

سألها فيشر إزالة الركام بما يكفي لنقل نمر، قبل العمل على حمله إلى الردهة. عمد الثلاثة إلى تغطية الرجل ببطانية، والنزول به تسع مجموعات من السلالم، حيث كان يصرخ من هول الألم مع كل ارتطام ينتج عن حركتهم.

غصت ردهة الرشيد بالمذعورين، الهائمين على وجوههم من موظفي السلطة. أمضى بول وولفويتز وغيره من مسؤولي البنتاغون ليلتهم في الفندق. تجمعوا في إحدى الزوايا، محاطين بالحرس، وقد تهدم وولفويتز بما يفوقهم أناقة -مرتدياً سروالاً عريضاً، وقميصاً أزرق اللون- وإن كان أشعث الشعر، يكسو الشحوب وجهه.

تفرق الحشد، بينما حمل المسعفون نمرأ إلى الردهة، ومددوه على الأرضية الرخامية. أدخل أحد الأطباء أنبوباً للسوائل في وريد نمر، وعمل فيشر على فحص صديقه بصورة أشمل. لم تبدُ الحال جيدة. لم يشتهه الرجل في تضرر دماغ نمر وجمجمته فحسب، بل معدته وحبله الشوكي كذلك.

قدمت عربة إسعاف، من طراز همفي، لنقل نمر عبر المسافة القصيرة المؤدية إلى مستشفى المنطقة الخضراء، ليرافقه فيشر في مؤخرها. نزع نمر الصليب عن عنقه، في منتصف الطريق، قبل أن يضعه في يد فيشر.

خاطب نمر الأخير، بذلك الصدد، قائلاً: «لا أظن أنني سأنجو. أعطه زوجي من فضلك. قد ورثته عن عائلتي».

وضع نمر على نقالة متحركة، عند بلوغه المستشفى، قبل أن ينقل إلى قسم الطوارئ. صرخ فيشر، في حينه، قائلاً: «حالته طارئة. انقلوه هناك».

اشتبه أحد الموظفين مخطئاً - حين ذهب فيشر؛ بحثاً عن كبير جراحي الأعصاب - في أن نمرأ كان أحد سجناء الحرب العراقيين، ليعمد إلى نقله إلى مكان لاحتجاز العراقيين المصابين بنيران القوات الأمريكية.

صرخ نمر في الموظف قائلاً: «لا تفهم الوضع. أنا عقيد في الجيش الأمريكي. لا أنتمي إلى أولئك الناس».

فقد الرجل وعيه فيما بعد.

أخرج الجراحون كثيراً من الشظايا من ساق نمر وظهره، ناهيك عما استخلصوه من الكسرات المعدنية، التي سببت شللاً مؤقتاً، من عموده الفقري. اكتشف الجراحون، علاوة على ذلك، تمزق طبلة أذنه اليسرى، بعد قيامهم بفحصها، وقد عمدوا إلى معالجة حروق وجهه الناتجة عما لم يستهلك من وقود الصاروخ.

نقل الرجل، بعد خمس عشرة ساعة، إلى مستشفى عسكري في ألمانيا، قبل أن ينتهي به المطاف في مركز والترديد. خضع نمر، فيما بعد، لعشر عمليات إضافية، وقد كان يشعر بشديد العذاب، والألم، والإحباط، في بعض الأحيان، ليستعيد عافيته في نهاية المطاف، على النقيض من مدينة الزمرد.

وقف الجنرال مارتن ديمبسي، قبل الهجوم بخمس عشرة ساعة، في منتصف جسر الرابع عشر من تموز، ليعلن «أن الأمن والسلامة قد تحققت» في بغداد. عمد الجنرال وثلاثة من أعضاء مجلس المدينة -بينما عزفت فرقة عسكرية أمريكية النشيد الوطني العراقي- إلى قص شريط أزرق، معلق عند مدخل الجسر.

صرخ أحد أفراد الشرطة العراقية قائلاً: «تقدموا، الطريق مفتوح»، ليجتاز المدخل المئات من الأطفال والبالغين، وهم يهللون ويصفقون.

امتد الجسر -الذي استمد اسمه من ثورة الرابع عشر من تموز/ يوليو 1958، التي أطاحت بالملكية المدعومة من قبل بريطانيا- فوق نهر دجلة، عند الجهة الجنوبية الغربية للقصر الجمهوري، ليؤدي إلى طريق سريعة مؤلفة من ثمانية

مجازات، تمتد إلى الغرب من فندق الرشيد، قبل الاتصال بالطريق العام نحو الموصل شمالاً. أغلق الجسر والطريق السريع، اللذان يشطران المنطقة الخضراء، منذ دخول الأمريكيين بغداد.

وافق فريق «قوة الحماية» -المسؤول عن تأمين مدينة الزمرد، على مضض، بكل الأحوال، عند حلول فصل الخريف- على إعادة افتتاح الجسر والطريق السريعة. عمد الجيش الأمريكي إلى إقامة جدار من الصلب، بارتفاع سبعة عشر قدماً، حول المنطقة الخضراء، لتقليل من فرص إصابة القصر من فوق الجسر. أحاطت الجدران الصلبة، علاوة على ذلك، الطريق السريعة، لتشكيل نفقاً فوق أرضي عبر أمريكا المصغرة. عمل الأمريكيون على اجتياز الطريق السريعة عبر طريق سفلي بالقرب من فندق الرشيد.

اشتكى الساسة العراقيون مما يسببه الإغلاق من ازدحام مروري، على امتداد أميال، على الطرق والجسور الأخرى. أبقت سلطة الائتلاف المؤقتة على قناعتها بأن الأمن آخذ في التحسن، بالرغم من تزايد هجمات المتمردين في العاصمة. أشار موظفو السلطة، حين أبدى مسؤولو قوة الحماية اعتراضهم، إلى افتتاح حديقة حيوانات المدينة، والمنتزه المجاور - على الجهة الأخرى من الطريق السريعة، التي تقابل فندق الرشيد - منذ شهر مضى، دون وقوع أي من الحوادث.

مضت شاحنة نقل بيضاء، في الخامسة والنصف من صباح اليوم الثاني، تجر مقطورة محملة بما بدا مولداً كهربائياً أزرق اللون، عبر الطريق السريع، قبل أن تتجه إلى المنتزه الواقع مقابل فندق الرشيد. توقف السائق في فسحة خالية، تواجه الفندق بصورة مباشرة، ليعمد، برفقة شريكه - كما هو محتمل - إلى فتح جانبي المولد المفترض. احتوى الأخير على أربعين من الصواريخ الموصولة بطريقة بسيطة، حيث كان نصفها فرنسي الصنع، ونصفها الآخر روسياً. عمد المهاجمان إلى تمويه القاذف، وتشغيل مؤقت التفجير.

أخبر ديمبسي وولفويتز، فيما بعد، أن الهجوم أطاق اللثام عن ضعف القوى المعارضة للاحتلال الأمريكي. لم يجسد القاذف سوى أداة بدائية الصنع، ولم

يقتل من نزلاء الفندق سوى خبير في العمليات السيكلوجية ضمن فريق الاتصالات الإستراتيجية. تضرر الفندق، جراء الهجوم، دون أن يصيبه كثير من الدمار.

توصل العديد في المنطقة الخضراء إلى ما هو مناقض من الاستنتاجات. كشف الهجوم النقب، في نظرهم، عن أن مدينة الزمرد لم تعد واحة آمنة. تمكن المتمردون من ضرب مركز القوة الأمريكية في العراق، ناهيك عن قتل أحد موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة. أقر ديمبسي وجنرالات آخرون، في نهاية المطاف، أن أشهراً من المراقبة والتخطيط، على الأرجح، قد سبقت تنفيذ الهجوم.

أثرت مناظر الأمريكيين المصابين، الممدين في ردهة الفندق، بشدة في عديد من موظفي السلطة. لم يسبق لهم اختبار الآثار الناتجة عن حربهم، وقد هرع بعضهم إلى الخارج؛ كي يتقيؤوا.

أغلق الجسر والطريق السريع مجدداً أمام حركة العراقيين، ليقرر الضباط الأميون، المتخوفون من شن هجمات مماثلة، إغلاق الفندق على حد سواء. أضرت الصواريخ بنظامي التمديدات الصحية والكهرباء بكل الأحوال. اكتست بعض الطوابق بما يرتفع قدماً من المياه، ناهيك عما أصابها من حرائق صغيرة.

لم يملك نزلاء الفندق خياراً سوى الانتقال إلى القصر مجدداً، ليضطر بعضهم إلى النوم في مكاتبهم. لم يعمل الجيش وهاليبرتون على تنصيب أسرة متنقلة في قاعة الرقص الضخمة والأروقة فحسب، بل الخزائن أيضاً. بدا القصر، في الواقع، يماثل ميماً كبيراً. انخفضت معنويات موظفي السلطة، الذين كانوا يشكون في الأصل من اضطرارهم إلى مشاركة الغرف في الفندق، بينما أرغموا على النوم مع المئات من زملائهم، ناهيك عن الاصطفاف أمام المراحيض المتنقلة.

تمثلت الميزة الوحيدة في شعور الناس بمزيد من الأمن. وقع القصر على مسافة بعيدة، داخل المنطقة الخضراء، بحيث عجز المتمردون عن إصابته على نحو مباشر، ناهيك عما وفرته الجدران - التي تعادل قدماً في سماكتها، كما بدت الحال عليه - من حماية ضد هجمات الصواريخ المستقبلية. قصف المتمردون مدينة الزمرد، بكل

الأحوال، بعدد من قذائف الهاون، عقب يومين من هجوم الرشيد. حدث الأمر ذاته في اليوم الثاني، ناهيك عن العديد من الأوقات اللاحقة، دون أن تصيب الهجمات، في معظم الأحيان، ما يتمتع بالأهمية من الأهداف. اكتفى المتمردون - عوضاً عن إطلاق قذائف متتابعة لتحسين الدقة - بنصب مدافع الهاون عبر دجلة، وإطلاق عدد من القذائف سريعاً، قبل الفرار على عجل. أمكن للرادارات الأمريكية تحديد موقع الإطلاق في ثوانٍ، ولكن الجيش لم يكن يرد بصورة تلقائية؛ مخافة انطلاق الهجمات من مناطق سكنية، وعدم الرغبة، على سبيل المثال، بضرب أحد الأسواق المزدهمة بقذائف المدفعية.

أسهم رمي الفقاعة بعدد من قذائف الهاون، بغض النظر عن عجز المتمردين عن إصابة ما يذكر من الأهداف، في إثارة القلق بين سكان مدينة الزمرد. لم تسلم الأماكن كافة من المخاطر.

دوت مكبرات الصوت في القصر، كلما وقع هجوم بقذائف الهاون، مطالبة ساكنيه بالاحتماء. اعتاد الموظفون دعوة التحذير «بالصوت العملاق»، وقد كان يأتي على الدوام متأخراً بمقدار دقيقة أو اثنتين. كانت الصواريخ تسقط بالفعل، كما المعتاد، بحلول الوقت الذي تتردد فيه أصداء التحذير عبر الأروقة الرخامية. تقيد الجميع بالتعليمات، عند وقوع الهجمات، بكل الأحوال، مرتدين ستراتهم الواقية وخوذهم، راكضين باتجاه ملجأ القبو.

أخذ انطلاق الصوت العملاق يومياً، على وجه التقريب، يثير أعصاب ساكني القصر. عجز العديد من الموظفين عن النوم، بينما التجأ آخرون إلى التدخين والشرب، ناهيك عن زيادة عدد زائري عيادة معالجة التوتر الناتج عن القتال. بدأ بعض موظفي السلطة، علاوة على ذلك، في تعاطي المهدئات ومضادات الاكتئاب.

لم يقتصر الأمر على شعورهم بالخوف. أسهم الهجوم على فندق الرشيد - علاوة على ما استهدف المنطقة الخضراء من صليات قذائف الهاون - في تبيد الوهم الشائع داخل مدينة الزمرد بحلول الأمن في العراق. عملت سلطة الائتلاف المؤقتة،

منذ بواكير الاحتلال، على ضوء الفرضية المتمثلة في تحول العراق إلى واحة غناء لتعزيز الديمقراطية والسوق الحرة. افترضت إستراتيجية بيتر مكفرسون للتطوير الاقتصادي تمتع البلد بما يكفي من الأمن لتشجيع الشركات متعددة الجنسيات على إقامة المصانع. افترضت إستراتيجية جون أغريستو، عن التعليم العالي، امتلاكه القدرة، وفريقه، على السفر إلى كل من جامعات البلاد. افترضت إستراتيجية جيري بريمر السياسية امتلاك المتخصصين في شؤون الحكم القدرة على التنقل عبر البلاد لتشجيع الديمقراطية. تجاهل مسؤولو السلطة، علاوة على ذلك، التقارير المتعلقة بهجمات المتمردين، مفترضين أن ما يحدث من أمور سيئة يقتصر على الفلوجة، والرمادي، وتكريت - أو ما يعرف بالمثلث السني.

جسدت الهجمات على المنطقة الخضراء أول ما أصاب الدرع الدفاعية من خروق. خاطبني أحد الأصدقاء، من موظفي السلطة، بذلك الصدد، قائلاً: «مثلت تلك الهجمات نداء استيقاظ عنيف. أدركنا، بصورة مفاجئة، أن الوضع الأمني يخالف ما دُفعنا إلى تصديقه، وقد بدأ الناس يطرحون السؤال الآتي على أنفسهم: «إن ساءت الأمور، ولم تتحسن، فكيف سيكون بمقدورنا القيام بكل تلك الأشياء الطموح التي نأمل في إنجازها؟». مثل ذلك ما أثار خوف الناس حقيقة».

أخذت تقارير سلطة الائتلاف الأمنية اليومية طابعاً تحذيرياً، ليطالب كل منها الناس بالتنبيه إلى السيارات المشبوهة، والشارات المزيفة، والمفخحات. توقفت الرحلات القليلة، خارج الفقاعة؛ بغية التسوق، أو تناول طعام العشاء في المطاعم الفاخرة، وبدأ موظفو السلطة في حمل السلاح داخل المنطقة الخضراء.

ما انفكت الإشاعات تدور عن التحضير لهجمات أخرى، تشن بواسطة السيارات المفخخة، لا الصواريخ أو قذائف الهاون، وأمواج من المتمردين الساعين إلى اقتحام القصر. تمثل إحداها في ازدياد عدد العراقيين داخل المنطقة الخضراء بمعدل المئات يومياً، مما يشكل إشارة واضحة على اختراق جموع الأشرار الفقاعة الآمنة، كما هو مفترض.

بدأ الأمريكيون يشككون في ولاءات العاملين لديهم من المترجمين وأفراد السكرتارية العراقيين. قدر أحد التقويمات الداخلية وقوع 60% منهم ضمن دائرة الشبهات. تمثلت المشكلة في جهل الأمريكيين هوياتهم. اعتقد الآخرون بخضوع عائلات من يدعي الولاء من العراقيين إلى تهديد المتمردين، الراغبين في معرفة وجهة الأمريكيين عند مغادرة المنطقة الخضراء. لم يمتلك العراقيون الثقة بحماية سلطة الائتلاف لهم، حال إبلاغهم بتلك التهديدات. اعتقد ضباط السلطة الأمنيون، علاوة على ذلك، أن العراقيين يقدمون للمتمردين، في أكثر الأحيان، ما يلتمسونه من معلومات.

أخذ فريق قوة الحماية في وضع لافتات، في أرجاء القصر كافة، تحذر الناس من ترك مواد حساسة فيما يمكن للعراقيين رؤيته من أماكن. تم العمل على تهميش العراقيين، عوضاً عن إشراكهم بصورة إضافية في عمليات سلطة الائتلاف المؤقتة.

خاطبني أحد الأصدقاء، من موظفي السلطة، بذلك الصدد، قائلاً: «لم يكن بمقدورك إشراك زملائك العراقيين في أي من الأمور. لم يكن بمقدورك مغادرة المنطقة الخضراء. لم يكن بمقدورك البقاء في الرشيد. شعرنا وكأننا نتعرض للحصار». توقف الرجل برهة، قبل أن يردف قائلاً: «لا يمكنك إدارة بلد بتلك الطريقة. يمكن أن تخلق الوهم بأنك تدير الأمور، ولكن لا يمكنك القيام بذلك فعلياً».



obeikandi.com

المنطقة الخضراء، المشهد السابع

تجمع العشرات من موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة في إحدى ليالي الأربعاء عليلة النسيم، من شهر أيار/ مايو، قبل ستة أسابيع من تسليم السيادة إلى العراقيين - حول بركة سباحة القصر، في حفلة وداع أخرى. رغب جيرى بريمر في عودة موظفيه إلى الديار في مجموعات صغيرة؛ كيلا يعتقد الناس أن الأمريكيين يفادرون العراق بصورة جماعية. سعى الطامحون إلى البقاء ما أمكنهم، بينما افتقر الآخرون إلى الصبر إلى بلوغ المطار. رغب الجميع، بكل الأحوال، في احتساء المشروبات، للمرة الأخيرة، مع صحبهم. أقيمت الحفلات الوداعية في كل من ليالي شهري أيار/ مايو، وحزيران/ يونيو - عند بركة السباحة، في فندق الرشيد، والمطعمين الصينيين.

اتسمت تلك الليلة بالهدوء، بلا هدير قذائف الهاون، أو تحذيرات الصوت العملاق بضرورة الاحتماء.

سُمعت فيما بعد، بكل الأحوال، أصوات أعيرة نارية بعيدة. عمل أليكس ديغان، موظف وزارة الخارجية المشارك في الحفلة، على التقليل من شأنها، كما زملاؤه، بعدها إحدى المعارك الاعتيادية بين الجنود والمتمردين.

أخذت الأصوات تشتد، مع ذلك، وتزداد حدة، قادمة من الاتجاهات كافة، كما بدت الحال عليه، ناهيك عن انطلاق القذائف التي تخلف وراءها آثاراً برتقالية من الدخان في السماء، على هيئة أقواس. ترددت، علاوة على ذلك، أصداء أعيرة البنادق الآلية، من طراز «إي كي 47»، عبر نهر دجلة.

بدأ الذعر يترك ديغان. فكر الرجل، في تلك اللحظة، قائلاً لنفسه: «ها هو ذا قد وقع، الهجوم الشامل. سيزحفون عبر الأسوار».

هرع ديغان، برفقة المحتفلين جميعاً حول البركة، إلى الداخل. ركض بعضهم باتجاه ملجأ القبو، بينما انسحب آخرون إلى مكاتبهم، مبتعدين عن نوافذها. بدأ

أولئك في التساؤل عما إذا كان يتعين عليهم المغادرة بواسطة طائرة مروحية، كما أواخر الموظفين في السفارة الأمريكية في ساينغون.

استمع جميعهم إلى الأخبار بعد مضي ساعات: هزم العراق السعودية، بثلاثة أهداف مقابل هدف واحد، في مباراة لكرة القدم، ليتأهل إلى نهائيات دورة الألعاب الأولمبية المقامة في أثينا ذلك الصيف.

كانت بغداد تحتفل.

